المحاكاة أو التقليد

بقلم الاستاذ محمد عطية الابراشي

أستاذ التربية والبعثات السامية بدار العلوم والتربية والاخلاق بكلية أصول الدين وعلم النفس بكلية الحقوق

في هذا البحث القيم عن « المحاكاة أو التقليد » ما يدل على دقة الأستاذ الابراشي في البحث ، وما يدل مع ذلك على تيسيره للنظريات المعقدة تيسيراً يقرب القراء منها ويحببهم إلى تلاوتها ، وليس هذا بالعمل الجديد على الأستاذ الابراشي ؛ فإن بحوثه التي يلقيها من منابر الصحف حيناً ، ومن منابر الكليات التي يدرس فيها حيناً آخر ، إنما تجمع إلى العمق الطلاوة ، وإلى الدقة الرقة ، وإلى الإمتاع النفع الجزيل . ؟

المحرر

يذكر (مكدوجل) أن المحاكاة غريزة من الغرائز لأنها لا تصحب باقتمال وجداني ، ويرى أنها ميل فطري في الإنسان يدعوه إلى تقليد غيره في أفعاله وأقواله ، وحركاته وسكناته ؛ قصداً أو من غير قصد . فالطفل يقلد بطبيعته كل ما يحدث في البيئة التي تحيط به حسناً كان أو قبيحاً ، فهو يحاكي من لهم به صلة من حيث لا يشعر ولا يشعرون ؛ ويتعلم اللغة محاكاة من يعيشون معه ، ويتعلم الحركة والمشي والآداب العامة بالمحاكاة . وهو في العادة يحاكي الشيء المحبوب لديه ، أما المقلَّد فيجب أن يكون نموذجاً حسناً حتى لا يترك أثراً سيئاً في الطفل ؛ فالوليد يقلد اللغة التي يسمعها ، ويردد الألفاظ التي تقال له في المنزل أو المدرسة أو الشارع أو الملعب ؛ لذا يجب أن يرى الطفل أحسن مثل ، وأن يعود المحاكاة فيما يحسن من الأمور ، لا فيما يقبح منها .

والتقليد أثر كبير لا في التعليم فحسب ، بل في التربية العقلية أيضاً ، وهو عامل رئيسي في المرحلة الأولى لتكوين العادة ؛ فالطفل يرى الشيء يفعل أمامه فيحاكيه ويكرره حتى يصبح عادة له . ويختلف الأطفال كثيراً في قوة المحاكاة لاختلافهم في النزعات والقوى الجسمية : فالطفل النشيط ، القوي الجسم ، أسرع في محاكاة الحركات من الطفل الخامل الضعيف . وهناك أطفال يشعرون بأنفسهم ويثقون بها ، ويحبون الاستقلال في عملهم ؛ وأمثال هؤلاء لا يتأثرون بغيرهم في المحاكاة ، كما يتأثر ضعاف النفوس من الأطفال ، الذين يحبون أن يخطوا خطوات غيرهم فيقلدونهم في كثير من الأمور .

ويتبين أثر التقليد فى التعلم والتعليم إذا نظرت إلى الفرق بين تفهيم الطفل كيفية المشى بالمحادثة والتكلم ، وبين رؤية الطفل طفلا آخر يمشى فيحاول تقليده فى ذلك . فتفهيمه المشى لايعلمه المشى ، ولكن بالمحاكاة والتجربة يستمر حتى يعتاد المشى ؛ فالتقليد له أثره فى الأمور العملية التى تحتاج إلى مهارة ، وهو الوسيلة التى بها تكتسب المهارة فى كثير من الأعمال كالألعاب الرياضية ، والخط ، والرسم ، والتمثيل ، والخطابة . فهو يساعد على التعلم ، لأننا نلاحظ أولا ما يفعل أمامنا ، ثم نحاول تقليده بقدر المستطاع . وليس معنى ذلك أننا لابد من أن ننجح فى تقليدنا لأول مرة ؛ لأننا قد نفشل فى المحاولة الأولى ، وننجح فى الثانية مثلا ، وليس التقليد مقصوراً على الأطفال ، ولكنه موجود بين الكبار أيضاً .

أنواع التقليد :

أما أنواع التقليد — مرتبة حسب ظهورها فى الطفل — فخمسة ، هى[1] :

١ — التقليد المنعكس .

٢ — التقليد التلقائى .

٣ — التقليد الاختيارى أو المقصود .

٤ — التقليد التمثيلى .

٥ — التقليد الأعلى .

ولنشرح كلا منها فنقول :

١ — التقليد المنعكس : هو أول نوع يظهر فى الرضيع منذ الولادة ؛ فهو يبكى عادة حينما يؤلمه شىء ما ، وقد يبكى من غير ألم ، لا لسبب إلا لأنه يسمع ويرى وليداً آخر يبكى فيبكى مثله . ومن أمثلة التقليد المنعكس بين الكبار أنك تتثاءب حينما يتثاءب غيرك ، ولو لم تكن هناك حاجة إلى التثاؤب .

٢ — التقليد التلقائى أو الانعكاسى : وهو المرحلة الثانية من أنواع التقليد ؛ ولا يظهر عادة قبل أن يبلغ الوليد الشهر السادس من العمر ، ويختلف عن التقليد المنعكس فى أنه ليس مقصوراً على الأفعال المنعكسة التى يقلدها الطفل ؛ فقد يسمع الطفل كلمة من الكلمات فيحاول تقليدها من تلقاء نفسه ولو بالتقريب ؛ وقد يراك تصفق بيديك أو تهز رأسك فيفعل كما تفعل من غير قصد ، وهو مجرد تقليد ، وكثيراً ما تجد الناس فى المجتمعات يقلد أحدهم الآخر من

(١) انظر كتاب علم النفس التطبيقى للمؤلف ص ٦٢ — ٦٤

غير تفكير فى السبب و الغرض من العمل الذى يقوم به . والتقليد التلقائى هو الأصل فى تعلم اللغات أثناء الطفولة . فالطفل يقلد اللهجة التى يسمعها من تلقاء نفسه .

٣ — التقليد المقصود : كأن يقلد الطفل فى نطق كلة من الكلمات ، أو كتابة حرف من الحروف ، أو فى عمل من الأعمال قصداً لأجل التعلم مثلا ؛ ويظهر هذا النوع من التقليد فى السنة الثانية أو الثالثة من العمر . والفرق بين التقليد المقصود، والتقليد التلقائى : أن الأول تقليد لغرض خاص ، وأما الثانى فتقليد من غير غرض مقصود .

٤ — التقليد التمثيلى : وله أثر كبير فى حياة الأطفال ؛ ويظهر من السنة الثالثة إلى السابعة من العمر . ويلعب التخيل دوراً كبيراً فى هذا النوع من التقليد ؛ كالطفل يتخذ العصا حصاناً يركبه ويسوقه ، والكرسى سيارة فيركبه ويخاطبه كأنه يخاطب سيارة . وقد يقلد أباه و أمه أو الطبيب أو الخادم فى كثير من أحوالهم ومظاهرهم .

٥ — التقليد الأعلى : وهو آخر أنواع التقليد ظهوراً ، ولا يبدو أثره حقيقة إلا فى حال البلوغ والمراهقة ؛ فالغلام فى هذه السن يقلد ما يراه من الأمثلة التى تركت أثراً كبيراً فى نفسه ؛ ولهذا السبب يجب أن يستمر التعليم المدرسى حتى بعد مرحلة البلوغ ، فلا يحرم الشاب الفرصة فى عرض المثل العليا فى نفسه ليعمل للوصول إلى الكمال فى المستقبل . والفتيان يميلون الى أن يقلدوا ، ولا يعنى المثل العليا التى تحيط بهم فى بيئتهم ؛ وبعد ذلك يرجعون إلى التاريخ والأدب فيحاكون الأبطال والأدباء ؛ وهنا الفرصة سانحة أمام المربى لتشويق الطلبة إلى دراسة حياة عظماء الرجال ، من : علماء ، ومخترعين ، وفنيين ، وسياسيين ، وأطباء ، وأدباء ، وقادة ، حتى يتسع المجال أمامهم فيختاروا ما يشاءون .

وليس معنى ذكر أنواع التقليد مرتبة بالكيفية السابقة ، أن الأنواع الأولى تموت بظهور الأخيرة ، بل تستمر كل هذه الأنواع فى الإنسان مدى الحياة ؛ فتى الشاب — مثلا — تجد كل أنواع التقليد .

وأرقى أنواع التقليد التقليد لغرض معين ؛ وكلما كان الغرض حياً كان التقليد حسناً — كما فى حالة العزم على محاكاة نموذج من النماذج المستحسنة ، محاكاة وفق الأصل — ؛ أما النموذج الذى يحاكيه الأطفال فيجب أن يكون واضحاً حسناً حتى تسهل محاكاته . وعلى المربين أن يذكروا دائماً أن الأطفال يلاحظون تصرفاتهم ويقلدونهم فيما يشاهدون وما يفعلون من حيث لا يشعرون ، فيجب ان يظهروا دائماً المثل الأعلى أمامهم ، حتى يكونوا خير قدوة يقتدى بها . وأقل أنواع المحاكاة : المحاكاة فى الأفعال التى يظهر فيها الشعور والمشاركة الوجدانية . ؟

محمد عطية الابراشى